مفهوم الجسد عند توما الإكويني

***

أد. بوشيبة محمد*

"إن الإنسان يجهل أكثر مما يعرف، وإذا عرف شيئا من وجه فليس يلزمه أن يعرفه من كل الوجوه، ولا يوقع ذلك خللا فيما يعرفه". ابن سينا

****

Résumé :

Le concept du corps selon saint Thomas D'Aquin

Etant donné que la forme du corps vivant chez Thomas D'Aquin, et que l'objectivité de la connaissance suppose que l'intellect est irréductible a une fonction corporelle, et que l'âme humaine est un principe spirituel capable de subsister sans le corps, l'âme humaine n'est pas moins née pour qu'elle soit unie au corps.

C'est à partir d'ici que l'intellect est en nous une faculté de l'âme, qui donne son engagement au corps en dénotant son ouverture à la transcendance Thomas D'Aquin défend la composition de l'être humain, sa place dans la hiérarchie universelle, et oppose l'ordre stable de la création aux différentes théories de l'évolution, quelles que soit leurs natures ascendantes ou de ascendantes.

يُعدُّ توما الإكويني[1] من أعظم الفلاسفة الأسكولانيين في تاريخ الفلسفة الوسطية، حيث يرتكز على أرسطو في معظم براهينه على أرائه اللاهوتية، كما أنه ظهر في عصره كمجدد، حيث كتب غيليوم ذي توكو مؤرخ سيرة توما الأكويني، يقول: "كان الأخ توما يطرح في محاضراته مسائل جديدة، ويكتشف مناهج جديدة ويستعمل شبكات جديدة من البراهين"[2]، وهذا مما يدل على أنه احتل مكانة مرموقة لا ينازعه فيها أحد وإنتاج توما الأكويني يمكن أن يقسم إلى خمس فئات من الكتابات:

- شروحات على الأسفار المقدسة.
- الشروحات الفلسفية أو اللاهوتية (حول كتاب "الحكم" لِـ لومبار (1256-1254)، حول "الكتيبات اللاهوتية" لِـ بويسيوس (1258-1257)، حول "الأسماء الاهية "لِـ دينس المنحول

---

* أستاذ بقسم الفلسفة، جامعة وهران 2.

[1]- فيلسوف أوروبي (1225 -1274 م)، عاش في العصر الوسيط لقب بمدينة (أكينو) الرابطة بين نابولي وروما العاصمة، كان أكبر شاهد على التحوّل الثقافي خلال ذلك العصر الذي أحرز على تقدم اقتصادي واجتماعي، حتى سمي بعصر الحرية والعقل، كما سمي عند البعض بالعصر الحديث، درس في باريس على يد أستاذه (ألبرت الكبير). فرَّق توما الإكوني بين العقل والمادة والفلسفة واللاهوت، وكان لاهوتيا قبل أن يكون فيلسوفا. أما الإنسان فهو عنده عقل وذكاء، كما قام بتحديث المفهوم التقليدي للنفس والجسد، ورأى أن النفس هي التي تحتوي الجسد، وليس العكس، وفكرة عدم فناء النفس عنده مستمدة من الإنجيل.

(EncyclopidiaUniversalis/Corpus 22-Edition Paris –FRANCE -1992-PP de 608 a 611)

[2] - ادوارد جونو، الفلسفة الوسيطة، ترجمة: د. علي زيعور، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الثالثة -1982 بيروت –لبنان، ص 127- 128.

(1260)، حول "كتاب العلل" (1271-1272)، حول أغلب كتب المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة لِـ أرسطو (1266-1274)).

- كتابات " المسائل المتنازعات عليه و"المسائل المتفرقة"
- "كتيبات" حول مختلف المواضيع (مثلا: "في الوجود والماهية" (1250، 1256)، ثم "في خلود العالم...الخ).
- الخلاصتان، وهما: "الرد على الخوارج" (1259،1264)، و"الخلاصة اللاهوتية" (1266-1274)[1].

إن هذا الإنتاج الضخم لتوما الإكويني "من لا هوتي وعقل وفلسفة وأخلاق قد غطى كل أنواع المعرفة في العصر الوسيط"[2]. وكانت فلسفة توما الإكويني تدرس في المعاهد التعليمية الكاثوليكية باعتبارها الفلسفة الوحيدة الصحيحة، كما أن أهمية توما الإكويني لا تقتصر فقط على الجانب التاريخي بل له أثار حية كأفلاطون وأرسطو وكانط وهيغل، فكان يعرف فلسفة أرسطو حقّ المعرفة.

وتوما الإكويني يشبه إلى حدٍّ بعيد أوغسطين، ففلسفتها "قائمة على مزيج من علم الأخلاق عند فلاسفة العهد القديم والمسيحية وعلم ما وراء الطبيعة عند اليونان ولكن بينما يقيم اوغسطين أخلاقه على دعائم بظرية المثل عند أفلاطون، نجد الإكويني يتخذ من نظرية الصور دعامة لأخلاقه"[3].

ونجح توما الإكويني في إقناع الكنيسة على أن فلسفة أرسطو أفضل من فلسفة أفلاطون في أن تكون أساسا لفلسفة مسيحية، "ولم يكن القديس توما الإكويني، إذن إلاّ الخلف الروحي للقديس أخناتون، القديس بودا، وكونفشيوس (...) بالإضافة إلى القديس أوغسطين والقديس بولس"[4]. ومما يؤكد دفاعه عن المسيحية قوله: "إن بدء العالم قابل للإيمان غير قابل للبرهنة ولا للعلم"[5].

ويرى توما الإكويني أن المعرفة مصدرها الوجدان الباطن، ولإثبات وجود الله وجب علينا التدرج من المحسوس أولاً حتى نصل الى الله، لأن المحسوس هو نقطة البدء في كل معرفة، وبهذا كان "توما أقرب الى الواقعية التجريبية منه الى المثالية التي تاتي عن الوجدان"[6].

ويظهر جليا تأثير فلسفة أرسطو على فلسفة توما الإكويني من خلال تنبيه لمبادئ أرسطو، ومنطقه الذي ساعده كثيرا على تنظيم مبادئه اللاهوتية بطريقة تختلف عن مفكري العصور الوسطى الدين

---

[1]- إدوارد جونو، الفلسفة الوسيطية المغرب المسيحي، ترجمة: د. علي زيعور، سلسلة ماذا أعرف، بدون ط، المنشورات العربية، بيروت، لبنان، 1974، ص 74-75.

[2]- Alain de Libera, la philosophie médiévale- Presses Universitaires de France -1ére Edition – Paris- 1993- page 407.

[3] - هنري توماس، أعلام الفلاسفة، كيف نفهمهم، ترجمة: متري امين، مراجعة وتقديم: د.زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، بدون طبعة، 1964، ص 183.

[4] - المرجع نفسه، ص193.

[5]- عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات، دار القلم، الكويت، لبنان، الطبعة الثالثة 1979، ص 159.

[6]- المرجع نفسه، ص 161.

ساور منهج أفلاطون، والأفلاطونية المتحدثة، فقد نظر توما الكوني إلى الإنسان والعالم على أنها حقائق ثابتة، مما أدى إلى تسمية فلسفته بالفلسفة الطبيعية، كما أنه كرس حياته في البحث عن الحقيقة والدفاع عنها من حيث اهتمامه بالفلسفة واللاهوت معًا.

ومشكلة حدوث العالم عند توما الإكويني قضية عقائدية لابد من الإيمان بها، أما قدم العالم فلا يمكن البرهنة عليه والخلق عند الإكويني تماما كما هو في الدين المسيحي خالقا من عدم ويتم دفعة واحدة.

ونشير إلى أن فلسفة توما الاكويني تختلف عن فلسفة سابقيه، "ففلسفته غير مرتبطة بفلسفة العصور الوسطى، بمعنى سيطرة الحياة الروحية واللاهوتية، بل تبدو فلسفة حديثة من حيث تركيزها على الواقع"[1].ونشير أيضاً، أنَّه "استعار الإكويني من ابن سينا تفرقة بين الماهية والوجود أي أن الماهية والوجود متمايزان كل التمايز ويطبقان فقط في الله وجميع الأشياء التي خلقها الله ماهية متميزة عن وجودها كما يضع الإكويني الوجود فوق الماهية"[2]. وللإكوني كتابًا في هذا الموضوع، يسمى كتاب "الوجود والماهية".

ويدَّعي توما الإكويني "أنه هدم فلسفة ابن رشد وأنقد أوربا المسيحية من إلحاده وزيغ إتباعه من الباريسيين الدين يطلق عليهم الباريسيين الراشدين"[3] ، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدلّ على أن توما الإكويني كان من أعداء ابن رشد، رغم أخده الكثير من فلسفة هذا الأخير.

إلا أن الحقيقة عكس ذلك، فتوما الإكويني أخد معظم أرائه عن ابن رشد، ونسبها إلى ابن رشد، وعلى هذا الأساس استطاع أن يهاجم خصمه الذي كان له فضلا كبيرا عليه. وفي هذا الصدد، إذ يرى د. جميل صليبا أن: "توما الإكويني كان أرسطوطاليسا، يمت إلى ابن رشد بصلة قوية، ويلوم ابن سينا على ميله إلى أفلاطون"[4].

ولِ توما الإكويني كتابا مهماً، يسمى "الحجة على الكافرين"، وفيه يهدف إلى البرهنة على وجود الله، وصدق الديانات المسيحية، والبرهان على وجود الله عند توما الإكويني هو نفسه كما جاء عند أرسطو، وهو "قائم على المحرك الذي لا يتحرك، فهناك أشياء تتحرك بغيرها فقط، وأشياء أخرى تحرك غيرها وتتحرك بغيرها معا، وكل ما يتحرك يحركه شيء سواه، ولما كان التسلسل اللانهائي مستحيلا، فلا بد أن نصل عند نقطة ما إلى شيء يحرك الأشياء الأخرى دون أن يتحرك هو، وهذا المحرك الذي لا يتحرك هو الله"[5]، وهنا تجرد بنا الإشارة إلى أن هذه الحجة عند أرسطو تنتهي إلى آلهة متعددة خلافا لما هو عند توما الإكويني.

---

[1] -نوال الصراف الصابغ، المرجع في الفكر الفلسفي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1983، بدون ط، ص151.
[2] -جماعة من الأساتذة السوفيت، المرجع السابق، ص 173.
[3] -محمود قاسم، نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الاكويني، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ، ص 120.
[4] - جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، دار الأندلس، ط3، بيروت لبنان، 1983، ص 22.
[5]- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، مراجعة د. أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 2، القاهرة، 1968، ص 238.

وتوما الإكويني تلميذا لِـ (ألبرت الكبير)، الذي كان الأرسطي الأول بين فلاسفة ذلك العصر، فنجده قد جمع بين الفلسفة واللاهوتية، ويرى: "أن ليس في الوحي ما يضاد العقل، ولكن لابد من فصل أجزاء العقيدة التي يمكن البرهنة عليها بالعقل، عن أجزائها التي لا يمكن البرهنة عليها "[1].

وبعد أن قام توما الإكويني برهانه على وجود الله الأزلي، غير المتحرك، غير المتبدل أثبت أنَّ: "الله فاعلية خالصة، وليس فيه تركيب من عناصر، ولهذا فليس هو بالجسم، لأن للأجسام أجزاء(...) وهو جوهر نفسه لأن هادا لم يكن كذلك، لما كان بسيطا، بل كائنا مركبا من جوهر ووجود، ففي الله لا فرق بين جوهر ووجود، وليس في الله حوادث عارضة، ويستحيل أن تتجزأ أجزاؤه بفروق جوهرية وهو لا يقع تحت جنس من الأجناس "[2].

لقد كان توما الإكويني كاثوليكيا، حيث اقتبس في معظم كتاباته نصوصًا تبيّن أن العقل قد انتهى به إلى نتيجة تلائم ما جاء به الكتاب المقدس، "فهو رجل جمع في صدره ثقافة العصور الوسطى كلها، وسار على نهج أرسطو العظيم، فبحث في السماء عن أبراجها، وفي المياه عن أسماكها، وفي الهواء عن أطياره، ولكنه يخالف أرسطو فلا يعني بدرس الطبيعة البشرية للبحث عن الحق والباطل (...) فهذا عنده لا داعي له، لأنه ولد مسيحيا وتقبل تعاليم المسيح بلا جدال"[3].

ومن هنا، يمكننا القول بأن فلسفة توما الإكويني، يغلب عليها الطابع اللاهوتي، حيث أن العصور الوسطى كلّها كان فيها تداخل بين الفلسفة واللاهوت من ناحية، والأفلاطونية والأرسطية من ناحية أخرى. ومن هنا، بنى توما الإكويني فلسفته التي تقوم على أساس معادلته التي يقول فيها: "يجب ألا تقوم العقيدة على العقل، وإنما يجب أن يقوم العقل على العقيدة"[4]. فالإكويني يرى بأنه لابد لكي نعقل أن نعتقد، ولكن رغم هذا فقد حاول التميّز منهجياً بين الفلسفة واللاهوت من جهة والأفلاطونية والأرسطوطاليسية من جهة أخرى، وساعده في ذلك معرفة لفلسفة أرسطو من خلال الترجمات اليونانية والعربية، وبذلك، يكون قد "حقق استقلالية فلسفية وارسطوطاليسية، أي استقلال الفلسفة عن اللاهوت، وارسطو عن أفلاطون (...) وظهر له أرسطو لا كما ظهر إلى أوغسطين والفلاسفة العرب قبله ضمن إطار أفلاطون بل ومن خلال وجهة نظر ارسطوطاليسية نقية (...) وبذلك جاء توما الإكويني باتجاه فكري فلسفي جديد ظهر تأثيره واضحا في الفلسفة الحديثة فيما بعد"[5].

ويتّضح لنا ممَّا سبق، أن فلسفة توما الإكويني تتَّسم بالواقعية المسيحية، حيث فصل بين الفلسفة واللاهوتية مع استبقاء الصلة بينهما حيث: أعاد إلى الفلسفة استقلالها بمبادئها ومناهجها، تبدو خالصة

---

[1] - المرجع نفسه، ص 237.

[2]- المرجع نفسه، ص 239.

[3] - هنري تومس ودانالي تومس، تراجم حية لأعلام الفلسفة الغربية، ترجمة: محمد بدران، عثمان نويه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بدون طبعة، القاهرة 1955، ص.85

[4] - هنري توماس، أعلام الفلاسفة، كيف نفهمهم، ترجمة: متري أمين، مراجعة وتقديم: د. زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون طبعة، 1964، ص189.

[5]- نوال الصراف الصايغ، المرجع السابق.

لذاتها في الشروح على أرسطو محتفظة بكيانها في سائر المؤلفات حيث نراها اله اللاهوت، وهي لا تنزل عن شيء من خصائصها ومقتضياتها، بل توجه اللاهوت وجهة جديدة ويوحي فيه بحلول معينة[1].

وهكذا بنى توما الإكويني فلسفته المؤسسة على العقيدة المدعمة بالعقل، حيث قال: "في عقيدتي الكثير ممل يفوق عقلي، ولكن ليس فيها ما يناقضه"[2]، كما قال في موضع أخر: "لقد أعطاني الله كل ما سألته، وإذا كان قد منحني الحكمة في سن أبكر من الآخرين فذلك لأنه أراد أن يقصر مدة النفي المحكوم بها علي في العالم لكي يقربني عاجلا إلي مجده"[3].
وهنا، إشارة واضحة علي أن توما الإكويني كان متشبعًا بالمبادئ الدينية المسيحية محاولاً في ذلك التوفيق بين عقله وعقيدته.

ثنائية النفس والجسد عند توما الإكويني:

لقد عالج الإكويني مسألة النفس في كتاباته المشهورة وخاصة في كتاب (شرح لكتاب النفس الأرسطي)، وكتاب (الرد على نظرية وحدة العقل ضد الرشيدين)، وأخيرا كتاب (الخلاصة اللاهوتية).

ولِـ توما الإكويني نظرية أطلق عليها اسم المتصورة (هيلومورفية)، ومفادها أن "كل كائن جسدي مؤلف من هيولى (هيلي) ومن صورة (مورفي)، وفي أعلى درجات سلم الكائنات البدنية يوجد الإنسان المؤلف من روح وجسد"[4].

إن النفس عند توما الإكويني هي "صورة الجسد"، ونفس الإنسان كنفس الحيوانات الأخرى، إلاّ أنها عند الإنسان متحررة نوعًا مَا من عبوديات المادة حتى تستطيع البقاء والخلود بعد موت الجسد.

ويقول القديس توما الإكويني: "يستحيل قطعا أن يكون لجميع الناس عقل واحد وهذا واضح على حد قول أفلاطون بأن الإنسان هو العقل لأنه لو كان لسقراط وأفلاطون عقل واحد فقط للزم كونهما إنسانا واحدا وإنهما لا يتمايزان ألا بما هو خارج عن ماهية كليهما كما أنه واضح في كتاب النفس لأرسطو... أن العقل جزء أو قوة للنفس التي هي صورة الإنسان لاستحالة أن يكون لكثير مختلفين عددا صورة واحدة كإستحالة أن يكون له وجود أد الصورة هي مبدأ الوجود"[5].

إلا أن د.محمود قاسم في كتابه (نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توما الإكويني) يلاحظ أن توما تردد "بين ثلاثة تعريفات للنفس تعريف أرسطو، وتعريف ابن سينا، وتعريف ابن رشد"[6].

---

[1] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت، لبنان، د(ط، ت)، ص 203.
[2] - هنري توماس، المرجع السابق، ص 193.
[3] - هنري توماس، المرجع نفسه، ص 193.
[4] - ادوارد جونو، الفلسفة الوسطية، المرجع السابق، ص 135.
[5] - زينب محمود الخضيري، أثر ابن رشد في الفلسفة العصور الوسطى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بدون ط، القاهرة، 1983، ص 362-363.
[6]- محمود قاسم، المرجع السابق، ص.16

وتجدر الإشارة إلى أن توما الإكويني لا يعترف بأن النفس مستقلة وأن أسمى درجات المعرفة تنتج عن اتحاد الذات المفكرة والشئ الذي تفكر فيه.

لقد عرّف أرسطو النفس بأنها كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة، وابن سينا عرّفها بأنها ذات مستقلة عن البدن تتحد معه اتحادا عرضيا، أما ابن رشد فألف بين كل من تعريف أرسطو وابن سينا، وعرّف النفس على أنها ذات كاملة لا تتحد بالبدن اتحادا جوهريا أو عرضيا، فيا ترى ما هو تعريف توما الإكويني للنفس؟

عرّف توما الإكويني النفس على أنها كمال للجسم العضوي، أو هي ذات قائمة بدأتها، وأما أن النفس كمال للجسم العضوي فهو يعني أنها صورة الجسد وتؤلف معه وحدة، أما التعريف الثاني وهو أنها قائمة بذاتها، فيستخدمه توما الإكويني فقط عندما يريد البرهنة على خلود النفس.

يقول توما الإكويني: "النفس الإنسانية مفارقة من وجه وحالة في المادة من وجه... أما كونها مفارقة فبحسب القوة العقلية لأن القوة العقلية ليست صورة آلة جسمانية كما القوة البصرية هي فعل العين فإن التعقل فعل ليس يمكن مباشرته بآلة جسمانية كالأبصار، وأما كونها حالة في المادة فمن حيث أن النفس التي لها هذه القوة هي صورة الجسد وهي غاية التناسل الإنساني فإذا نما قال الفيلسوف أن العقل مفارق لعدم كونه لآلة جسمانية"[1]، كما يقول في موضع أخر: "فإذا النفس التي هي مبدأ الحياة الأول ليست جسما بل فعلا للجسم كما أن الحرارة التي هي مبدأ التسخين ليست جسما بل فعلا للجسم"[2].

ومما تقدم لنا، أن توما الإكويني تردد بين كثير من الفلاسفة فقد بدأ نظريته في النفس بالاعتماد على إحدى نظريات أرسطو، وعن طريقها قرّر أن النفس واحدة برغم تعدد وظائفها وقواها، وأن هناك نوعا من التدرج بينها، بحيث تكون كل منها كمالا وصورة للتي سبقتها، وحيث قال توما الإكويني: "إن النفس الغذائية أساس للنفس الحسية، وهذه الأخيرة للنفس الخيالية، وهذه الأخيرة أساس للنفس العاقلة "[3]. ويرى د.محمود قاسم إن توما الإكويني يخلط في كثير من الأحيان بين النفس والعقل، فهو يقرّ "بأن النفس تكفي وحدها في تحديد الجوهر الحقيقي للإنسان، وإنها هي السبب الذي من أجله وجد البدن، وهي التي تخلع عليه في نفس الوقت الحياة والحس والإدراك"[4]. وهذا رأي شبيه إلى حدٍّ بعيدٍ، برأي ابن رشد، ويؤكد لنا توما الإكويني كان على إطلاع واسع بفلسفة ابن رشد وشروحاته لفلسفة أرسطو، وقد أشرنا في بداية بحثنا على إن توما الإكويني رغم نقده الشديد ومحاربته لِ ابن رشد، إلا أنه كان يتبع أراء عند الحاجة وخاصة في الخروج من بعض التناقضات، كما لا يفوتنا إن

---

[1] - زينب محمود الخضري، المرجع السابق، ص 252.
[2]- المرجع السابق، ص253.
[3] - محمود قاسم، في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1962، ص 141.
[4]- المرجع نفسه، ص 142.

نشير إلى إن توما الإكويني تردد كثيرا بين أراء ابن سينا وأرسطو، حيث يلجا إلى أراء الأول ليبرهن على خلود النفس، ويتبع أراء الثاني ليثبت إن العقل جزء من النفس، ويقول بهذا الصدد: "إن الصورة التي تؤدي أفعالها بإحدى ملكاتها أو قواها دون أن نستعين على أدائها بالمادة لهي صورة ذات وجود خاص بها، فليست النفس كباقي الصور، بل هي صورة قائمة بذاتها، ومستقلة نسبيا عن الجسم"[1].

مما تقدم يبدو لنا، أن توما الإكويني لم يستطع تكوين نظرية خالية من التناقض والغموض فيما يخص وحدة النفس وطبيعتها، وهو الذي رأى "إن النفس الإنسانية تعجز عن إدراك ذاتها إدراكا تاما لأنها صورة للبدن كما ينص على ذلك تعريفها، غير أن هذا لا يحول دون إن كون احد أجزائها، وهو العقل، قادرا على إدراك ذاته"[2].

ويرى الدكتور محمود قاسم أن توما الإكويني لم يتردد في استعارة بعض أراء ابن سينا في النفس حتى يتسنى له تكوين نظرية جديدة تخلو من الغموض والتناقض، كما أنه رغم نسب لابن رشد أراء غير صحيحة نجده يعتمد في نقدها على البعض أقوال ابن سينا والغزالي.

ترى كيف نظر توما الإكويني إلى علاقة بالجسد؟

لقد سلك هذا الفيلسوف مسلك الفلاسفة المسلمين، وخاصة أبو الوليد بن رشد، ولكنه آثر أن يأخذ برأي أرسطو في هذه القضية فقال: "إن النفس جوهر ناقص، وليس من الممكن تصورها دون البدن... والإنسان مؤلف من مادة وصورة، أي من جسد وروح متكاملين، هو الذي يلي مرتبة الملائكة... ولو قلنا أن العقل هو جوهر النفس لترتب على هذا أننا نهمل كثيرا من الصفات التي تدخل في مفهوم الإنسان من حس وخيال...الخ"[3].

ولكننا نلاحظ أن نظريته هذه لا تتّفق مع براهينه على وحدة النفس، وسرعان ما يرجع إلى نظرية ابن رشد فيقول: "إن النفس العاقلة هي الصورة الجوهرية للإنسان، وأنها تحتوي على جميع الوظائف النفسية العاقلة مرتبة منها"[4]. ومن هنا، يعترف توما الإكويني بأن النفس هي جوهر الإنسان، وأنها ذات مستقلة تتصل بالجسد وتستخدمه كآلة للمعرفة عن طريق الإحساس والخيال، وهو يذهب إلى ما ذهب إليه أرسطو أي أن النفس هي صورة الجسد موجودة في أي جزء من أجزائه ومتحدة معه، "كل العناصر العقلية لا مادية ولا يطرأ عليها الفساد، وليس للملائكة أجساد، أما في البشر فالروح متحدة مع الجسد... وليس في الإنسان ثلاثة أرواح بل روح واحدة"[5].

---

[1] - المرجع نفسه، ص 148.
[2]- المرجع السابق، ص149.
[3] - محمود قاسم، في النفس والعقل، ص 161.
[4] - المرجع نفسه، ص 161.
[5]- بتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، المرجع السابق، ص 243.

إذن، الجوهر الإنساني عند توما الاكويني مُكون من مادة وصورة؛ المادة وهي الجسد، أما الصورة فهي النفس، والنفس ليست بمادة ورغم أنها صورة للجسد فهي لا تفنى بفنائه، ويقول توما الإكويني: "فالحق إذن أن ليس في الإنسان صورة أخرى جوهرية سوى النفس العاقلة وحدها وإنما... تشمل بقوتها على النفس الحساسة والغادية"[1]. أي أن النفس العاقلة هي الصورة الجوهرية الوحيدة، وهي تشمل على كل ما دونها من صور مثل النفس الغادية والنفس الحساسة... الخ.

إن توما الإكويني يرى أن النفس هي الصورة الجوهرية للإنسان وهي متحدة مع الجسد وباتحاد النفس والجسد تتحقق ماهية الإنسان، ومن هنا نخلص إلى القول بأن هذا الاتحاد هو اتحاد المادة بالصورة، والنفس هي التي تعطي للإنسان الوجود، حيث يقول في هذا الصدد: "إن العقل الذي هو مبدأ الفعل العقلي هو صورة البدن الإنساني لأن أول ما به يفعل شيء هو صورة ما يسند إليه الفعل... فإذا هذا المبدأ الذي به تعقل سواء عقلا أو نفسا عاقلة هو صورة البدن"[2]. كما أن النفس العاقلة عنده هي جوهر الإنسان وهي السبب في وجوده ووجود الجسم والحس.

ومما سبق نخلص إلى، أنّ علاقة النفس بالجسد عند توما الاكويني هي علاقة اتصال لا انفصال، إن النفس متحدة بالجسد، وليست منفصلة عنه، ولكن ما طبيعة هذا الاتصال؟

يجيب توما الاكويني، قائلاً: "إن الصلة بين النفس والجسد دليل على العناية الإلهية بالإنسان، ذلك أن مرتبة النفوس الإنسانية في سلم الكائنات الروحية لا تسمح لها أن تدرك ما سواها من الأشياء بمجرد إدراكها لذاتها، كما هي الحال في أرواح الملائكة، بل لابد لها من الاستعانة على ذلك بالحواس"[3].

ومن مثل توما الاكويني هذا، نستخلص أن عن طريق اتصال النفس بالجسد تحصل المعرفة كما أن الجسد عند توما الاكويني ليس مضرا، وليس سجنا للنفس، بل هو أداة ووسيلة تحتاجها النفس في البلوغ كمالها، ويقول أيضاً: "لما لم تكن الصورة دون العكس، والنفس العاقلة لها في رتبة الطبيعة المقام الاسفل بين الجواهر العقلية...من حيث أنها ليس من المتجزئات... فوجب من ثمة أن لا يكون للنفس العاقلة قوة التعقل فقط بل قوة الشعور أيضا، والشعور ليس يحصل من دون آلة جسمية فوجب أن تتصل النفس العاقلة بجسم صالح لأن يكون آلة موافقة للشعور"[4]. وبهذا نستنتج، أن علاقة النفس بالجسد أو اتصالها به هي علاقة ذات منفعة، فالجسد يساعدها – النفس- على اكتساب المعرفة وبلوغ الحقائق اليقينية التي تمكنها من الكمال.

- خلود النفس عند توما الإكويني

---

[1] - زينب محمود الخضيري، المرجع السابق، ص 354.
[2] - المرجع نفسه، ص355.
[3] - محمود قاسم، في النفس والعقل، ص163.
[4] - زينب محمود الخضيري، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، المرجع السابق، ص 356.

لقد كان لتوما الإكويني رأيًا في خلود النفس بعد تحلل الجسد، وتساءل في مثاله المشهور قائلا: "ماذا يحدث لرجل لم يأكل طول حياته إلا لحما بشريا، ولا أكل أبواه إلا لحما بشريا كذلك فمن الظلم الظاهر لضحايا مثل هذا الرجل، أن يحرموا أجسادهم يوم الحساب نتيجة لشراهته، ومع ذلك، فلو بعثنا أجسادهم فماذا يبقى منه لبقى جسده هو؟"[1].

يجيب توما الاكويني عن سؤاله، بأن الجسد قد يتعرض إلى التغير الدائم في مادته التي يتكوّن منها بسبب عدة عمليات كالأكل والهضم، وبالتالي فأكل اللحوم البشرية قد يصادف جسده يوم البعث وهذا حتى وإن لم يكن جسده متكوّنًا من نفس المادة التي كان يتكوّن منها حين أتته الموت، وينتج عن هذا أن توما الإكويني كان دائما متمسكًا بفكرة خلود النفس، انطلاقا من ايمانه كمسيحي، وكفيلسوف توفيقي حيث انطلق في اثبات الخلود من أن النفس الإنسانية هي نفس عاقلة، إذاً فهي جوهر عاقل قائم بذاته، ولا يفنى بفناء الجسد، وبهذا يكون قد اعتمد في البرهنة على خلود النفس على التعريف السابق الذكر، وبهذا لا يفوتنا أن نشير إلى أن توما الإكويني ومن خلال برهنة على خلود النفس سلك مسلك أبو الوليد بن رشد، حيث سوَّى بين نفس الإنسان وعقله، فقال: "إن جوهر النفس الانسانية عقل محض يتصل بالبدن ويتخذه آلة له في الوصول الى المعرفة، فليست النفس اذن مجرد صورة كباقي الصور، ولذلك فإذا تعطل البدن وتفرق لم يكن ذلك سببا في فناء النفس، ويجب القول بان النفس الانسانية التي نطلق عليها اسم المبدأ العاقل ليست قابلة للفساد"[2]، كما أننا نجد توما الإكويني يفرق بين نفس الإنسان ونفس الحيوان، إذ يرى أن نفس الحيوان تفنى، لأنها ليست قائمة بذاتها كنفس الإنسان وهنا يقتصر فقط على خلود النفس الإنسانية إذ عبر عن ذلك بقوله: "نقول أن النفس الإنسانية مبدأ غير جسمي قائم بذاته"[3]. وعلى هذا الأساس يرى توما الإكويني أن النفوس الأخرى من نامية وحاسة تفسد بعد فساد الجسد، وأما النفس الانسانية فيكتب لها الخلود بعد فناء جسدها، وهذا ناتج عن أن للنفس قوى متعددة ومتمايزة صادرة عن ماهيتها.

ومما تقدم نستنتج، أن خلود النفس عند توما الإكويني يرتكز على إيمانه كمسيحي، وتوفيقه كفيلسوف، إذ برهن على خلود النفس انطلاقاً من ماهيتها وهي عنده جوهر عاقل قائم بذاته لا يفنى ولا يفسد (وهذا توفيق بين الأرسطية والأفلاطونية من جهة والعقيدة المسيحية من جهة أخرى)، كما أن البعث عنده يكون بالأرواح والأجساد معاً، حيث يقول توما الإكويني: "من البديهي إذن أن نفس الإنسان سيبعث من جديد وليس إنسانا آخر لأن كل العناصر التي تكون هذا الإنسان ستتحد بعضه ببعض... فإن نفس النفس ونفس الجسد هما اللذان سيبعثان"[4]، وهذا هو رأي توما الإكويني فيما يخص خلود النفس.

---

[1] - برتراندرسل، المرجع السابق، ص247.
[2] - محمود قاسم، في النفس والعقل، المرجع السابق، ص192.
[3] - المرجع نفسه، ص192.
[4]- د. زينب محمود الخصيري، المرجع السابق، ص 368.

-المراجع المعتمدة

1. ادوارد جونو، الفلسفة الوسيطة، ترجمة: د. علي زيعور، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1982 بيروت، لبنان.
2. الفلسفة الوسيطية المغرب المسيحي، ترجمة: د. علي زيعور، سلسلة ماذا أعرف، بدون ط، المنشورات العربية، بيروت، لبنان، 1974.
3. Alain de Libera, la philosophie médiévale- Presses Universitaires de France -1ére Edition – Paris-1993.
4. هنري توماس، أعلام الفلاسفة، كيف نفهمهم، ترجمة: متري امين، مراجعة وتقديم: دزكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، بدون طبعة، 1964.
5. عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات، دار القلم، الكويت، لبنان، ط3، 1979.
6. نوال الصراف الصايغ، المرجع في الفكر الفلسفي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1983، بدون ط.
7. محمود قاسم، نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الاكويني، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.
8. جميل صليا، من أفلاطون إلى ابن سينا، دار الأندلس، ط3، بيروت لبنان، 1983.
9. برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثاني، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، مراجعة د. أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 2، القاهرة، 1968.
10. هنري تومس ودانالي تومس، تراجم حية لأعلام الفلسفة الغربية، ترجمة: محمد بدران، عثمان نويه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بدون طبعة، القاهرة، 1955.
11. د.هنري توماس، أعلام الفلاسفة، كيف نفهمهم، ترجمة: متري أمين، مراجعة وتقديم: د. زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون طبعة، 1964.
12. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت، لبنان، د(ط، ت).
13. زينب محمود الخضيري، أثر ابن رشد في الفلسفة العصور الوسطى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بدون ط، القاهرة، 1983.
14. محمود قاسم، في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط3، 1962.